"المُعَلَّق فوق"

أنا: السلام عليكم، معك الأستاذ أيمن مفتش وزارة المعارف.

هو: أهلين أخوي!

(صمت من جهتي)

أنا: كُنت حابب أستفسر منك إشي.

هو: إحكِ.

(سكوت أطول من المرة الأولى)

-محادثة بيني وبينه.

هو: تمام، شكرًا يا كبير!

(إغلاق الخط من جهتي).

هذه محادثة حقيقية جرت قبل عدة أيام بيني وبين أحد المرشّحين للعمل في الإرشاد ضمن أحد البرامج في المدارس.

محادثات من هذا القبيل تحدث بفترات متقاربة كوننا قد عُدنا إلى العمل بنطاق واسع بانتهاء الإغلاقات المتكررة.

قد يتساءل البعض، خاصّة أبناء جيل الشباب، عمّا يميز محادثة من هذا النوع؟ قد يرى البعض الآخر أنها عادية جدًا وتحدث كلّ يوم. يعني ما الغريب في هذه المحادثة؟ وما هي الأمور التي استوقفتني أو جعلتني أتحفظ منها؟

الحقيقة، قد أكون حساسًا أكثر من اللازم أو أنني أبالغ في ردود فعلي، لكن هذه المحادثات تصدمني وتفاجئني كثيرًا، والأكثر من ذلك أنها تصيبني بالحزن. قد يستغرب بعضكم، ولكن إذا تمعّنتم قليلًا بالمصطلحات التي قام الشخص باستعمالها، والتي يستعملها معظم شبابنا، بغضّ النظر مع من يتحدثون. قد يتحدث أحدهم مع والديه أو أصدقائه، ومن المحتمل أن يتحدّث مع أساتذته أو أحد المسؤولين في العمل. تمعّنوا جيدًا بالمصطلحات: "أخوي، إحكِ، ياكبير!".

عندما تتحدّث مع أحد الأشخاص الغرباء عنك أو الأكبر منك سنًا، وأنا هنا أمثل دور شخص غريب ومسؤول، ويجيبني هذا الشخص بجملة "أهلًا أخوي" أو يقول لي "إحكِ" مستعملًا فعل الأمر بدل كلمة "تفضل" التي طالما سمعناها ونشأنا عليها، منتقلًا منها إلى كلمة "ياكبير"، فإنّ هذا الأمر مؤسف ومُحزن ويجعلني أتساءل أين نحن من التربية؟ أين نحن من تنشئة الجيل الجديد من آداب الكلام والحديث مع الآخرين؟

يا كبير!!، احسست نفسي جالساً في مقهى شعبي في أحد أحياء القاهرة القديمة، ندخن النرجيلة انا وهو، او في مشهد من فيلم مصري قديم، من الأفلام التي كانت تُعرض كل يوم جمعة. حقاً شَرُّ البلية ما يُضحك.

أتساءل هل سبب ما وصلنا إليه مع شبابنا يعود إلى الحقيقة أننا قد توقفنا عن قضاء الوقت مع أبنائنا؟ هل يعود السبب الى اختفاء مجالس السمر والسهر التي امتاز بها مجتمعنا، والتي كانت بمثابة مدرسة نتعلم بها كيف نتحدث مع مَن هم أكبر منا سنًا. هل يعود السبب الى ان شبابنا قد إنطووا على أنفسهم وأصبح الهاتف خير جليس لهم فأصبحت إجاباتهم مختصرة ومقتضبة؟!

تتصل بكَ أحد الفتيات صغيرات السن قائلة: "مرحبا، أيمن؟" ضاربة عرض الحائط كل أساليب الذوق الرفيع وآداب الحديث.

في البداية كنت أغضب وأثور من طريقة السؤال، ولكني اعتدت على هذا الأسلوب. ولكنني أتساءل: أليس من اللائق أن يقوم المسؤولون بتوجيه هؤلاء الشباب وإرشادهم حول كيفية التّوجه إلى الناس بلقب "سيد أو سيدة"؟!

الموضوع ليس موضوع "كَبْرة" أو "غرور"، إنّما هو موضوع أدب واحترام ولباقة بالتّعامل وحسن الذوق، فأنتم لا تعرفون من يتواجد بالجهة الثانية من خط الهاتف ولا تعرفون سِنّه أو مركزه.

لطالما آمنت أنّ التربية بالقدوة لا بالتنظير، ولست أقلل من شأن النّصيحة والكلام. لا بد أن يفهم أولادنا قوانين البيت، وآداب الطّعام، آداب الطّريق، آداب الحديث، كلّ هذا لا غنى عن الكلام فيه، ولكن تبقى المواقف أبلغ أثرًا، وأصدق من كلّ الكلام!

وهل نستطيع أن ننهي حديثنا بدون طرفة؟!

يُحكى أنّ أسدًا وذئبًا وثعلبًا تشاركوا في طلب الرزق، فاصطادوا جملًا وغزالًا وأرنبًا. قال الأسد للذئب: ‘‘أنت من أصحاب العقول، تحفظ الشرائع وتعرف الأصول، فتوَلَّ تقسيم الأرزاق على الرفاق".

وكان الذئب من رجال العلم والقانون، ويحفظ على ظهر قلبه كتاب "كشف الظنون عمّا في المصارين والبطون" ويحيط بأسرار "رسالة الناهش والمنهوش، بين البهائم والوحوش" فقال:

-"بناءً على المادة الخامسة من "قانون التراضي، تأليف القاضي "أبو فطايس"، ضبع العراضي، أحكم "بحصة الأسد"، للأسد، فيكون الجمل وهو كبير البهائم وأثمن الغنائم لمولانا الأسد، ويكون الأرنب للثعلب، ويبقى الغزال لأخيكم الذئب".

فزمجر الأسد وتناول الذئب بكفّه ورماه في الفضاء، فوقع على شجرة قريبة وتعلّق "فوق" في أحد أغصانها.

ثم التفت الأسد إلى الثعلب وقال: "قُم أنت، واقسم قسمة الحق".

قال الثعلب: "قسمة الحق لا تكون بالمطالعات والمرافعات، بل بمعرفة الواجبات وتقديم اللياقات لأصحاب الكرامات، وعلى هذا الأساس يكون الجمل فطورك والغزال غداءك والأرنب عشاءك".

فانشرح خاطر الأسد، وقال للثعلب: "ومن علّمك حسن الذوق؟".

قال: " المعَلَّق فوق".

الحياة تضعنا كل يوم في اختبار تكون فيه قيمنا ومبادؤنا على المحك وما أكثر الراسبين وأقل الناجحين.

دمتم بكل الخير

أ.أيمن جبارة